محمد جواد رضا

الإصلاح التربوي العربي: خارطة طريق

(بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦). ١٣٠ ص.

علي أسعد وطفة

أستاذ علم الاجتماع التربوي، كلية التربية، جامعة الكويت.

مقدمة

تتطلب القراءة النقدية في أعمال الأستاذ الدكتور محمد جواد رضا قدراً كبيراً من الإحساس بالمسؤولية، وكيف لا وأنت تقف في محراب واحد من أكثر المفكرين العرب أهمية وخطورة. إن الأستاذ الدكتور محمد جواد رضا من أكثر المنورين في التربية العربية عمقاً وحضوراً وفعلاً وتأثيراً، وبالتالي فإن الأعمال التي قدمها تشكل مهماز نقلة حضارية نقدية وتنويرية في ميدان الحياة الثقافية والتربوية العربية، إذ شكلت عطاءاته النقدية وطناً للفكر التنويري الحرّ الذي يتدفق بمعطيات رؤى استراتيجية حول واقع التربية والثقافة. ولا مبالغة في القول إن الدكتور رضا يشكل في واقع الأمر واحداً من هؤلاء الذين تركوا بصمتهم العميقة والمميزة في تاريخ الثقافة والفكر التربوي في العالم العربي خلال النصف الثاني من القرن العشرين.

وإنني اليوم، ومن موقع البحث الدائم عن العطاء العلمي المتدفق للدكتور محمّد جواد رضا، أجد نفسي متأملاً وناظراً وباحثاً في كتابه الجديد الميمون الموسوم **الإصلاح التربوي العربي: خارطة طريق**، وإنني إذ انظر في تقاسيم هذا الكتاب ومعالمه الفلسفية، لأرجو أن أكون في مستوى المسؤولية الكبيرة التي تقتضيها النظرة الموضوعية في عمل كبير متدفق العطاء.

يشخص كتاب الدكتور محمّد جواد رضا هذا واقع التربية العربية، ويحدد أبرز مواطن ضعفها وقصورها، وهو يمثل محاولة لتقديم تصورات جادة للانتقال بالأنساق التربوية العربية إلى مستوى النضج والفعالية الحضارية.

يتألف الكتاب من خمسة فصول ومقدمة وخلاصة تنفيذية، وهو يتناول جوانب الحياة التربوية ومفاصلها وحيثياتها في العالم العربي بهدف بناء خريطة واضحة تحدد معالم الإصلاح التربوي العربي واتجاهاته المتنوعة. ويقع في مئة وثلاثين صفحة من القطع الكبير. يتسم الكتاب بلغة محمّد جواد رضا التي عرفت ببنيتها

الجمالية وبلاغتها المحكمة وأصالتها البيانية، ولا يخفى على أحد ما تنطوي عليه لغة رضا من رشاقة وجمال، في تدفقات انسيابية تشدّ القراء وتستهوي قلوبهم فتدفعهم إلى تقصي معاني الجمال في لغة تربوية أصيلة ورصينة.

ينطلق رضا من مقدمة منهجية لكتابه عنوانها: «خلاصة تنفيذية: الإصلاح التربوي العربي: التحدي والاستجابة» يعرف فيها أبعاد وحدود العمل، وقد تميزت هذه الخلاصة باندفاعة فكرية حيوية تتميز بالدقة والشمولية والانتظام، وفي هذه الخلاصة التنفيذية يضع الكاتب التربية العربية في مواجهة التحدي الكبير الذي تفرضه الأحداث الجسام التي يشهدها العالم العربي والإسلامي، فالثقافة العربية بمؤسساتها التربوية تواجه حالة من الصراع الذي تفرضه قوى ثقافية سياسية عالمية متمادية في تسلطها وجبروتها، والتربية العربية تواجه في دائرة هذا الصراع مصيرها الإصلاحي الجديد الذي يراد له أن يكون إصلاحاً متجاوباً مع إرادة القوة الثقافية والحضارية التي تفرض نفسها من وراء المحيطات. وفي هذا الاتجاه يقدم رضا تصورات جادة للانتقال بالأنساق التربوية العربية إلى مستوى نضجها وفعاليتها الحضارية.

إن التربية العربية في قفص الاتهام، وهي معنية اليوم بإصلاح ذاتها ومجتمعاتها في آن واحد. ولكن هذا الإصلاح يأخذ طابع الانصياع لإرادة الخارج وتحدياته. ومن هنا يتصدى رضا لهذه المسألة ويريد للتربية العربية أن تحقق هذا الإصلاح بمقتضى الرهان الكبير الذي يفرضه العصر، وهو رهان التحدي والمواجهة الثقافية، لأن الإصلاح عندما يكون انصياعاً واستسلاماً فإنه يعني في نهاية الأمر حالة حضارية نكوصية مدمرة للواقع والإنسان في المنطقة العربية. ومن هنا ينطلق الكاتب للكشف عن ملابسات الدور الجديد للتربية العربية في اتجاه بناء هذه التربية على أسس جديدة تنطلق من الواقع كاشفة أوجه قصوره ومتطلعة إلى المستقبل مستجوبة تحدياته ومتطلباته عبر تربية تعتمد العقل والنظر وتنفض عنها غبار الزمن الغابر في اتجاه العمل على تبديد ظلام القهر الفكري والثقافي الذي يخيم في مناحي التربية والثقافة العربية المعاصرة.

في الفصل الأول الموسوم «خارطة طريق للإصلاح التربوي العربي» يتناول الكاتب صورة متكاملة لخريطة تربوية تريد أن تخرج بالواقع التربوي العربي من أزماته واختناقاته الوجودية، ويعلي رضا من شأن النزعة الذاتية المثالية في تصوره للإصلاح التربوي حيث يقول: «إن الطريق إلى الإصلاح التربوي.. هي في المقام الأول والأخير قضية إرادة، ومتى توفرت الإرادة وصدق العرب مع أنفسهم في إرادة الإصلاح فإن الطريق إلى الإصلاح موطأة لا عوج فيها».

وهنا يمكن القول في معرض رؤية نقدية لهذا التوجه الذاتاني إن رضا لا يعوّل كثيراً على العوامل الموضوعية لعملية الإصلاح والانهيار، ونحن نعرف اليوم أن أوضاع التربية مرهونة بحاملها التاريخي ولا يمكن لأي إصلاح تربوي أن يتحقق إلا في ظلّ الظروف الاجتماعية الموضوعية لإصلاح اجتماعي سياسي شامل. إن الإصلاح التربوي لا يكون بالإرادة الطيبة

وبصدق النوايا والإخلاص وشدّ الهمة، إنما يأتي في سياق تحول حضاري شامل، يكون العامل الذاتي في التغيير شرطاً من شروط التغيير نفسه وليس شرط الكفاية فيه. ولا يمكن لنا أن نتجاهل أن التربية العربية تواكب وتجسد وتبلور أوضاعاً سياسية واجتماعية قائمة وهي بالتالي لا تكون إلا وظيفة من وظائف الحياة المجتمعية. وقد يكون الشرط السياسي والاجتماعي أكثر أهمية من الشرط التربوي في عملية التغيير والإصلاح. إن الإصلاح التربوي ليس عملية ذاتية ومصدره ليس في النسق التربوي وهذا يعني أن الإصلاح التربوي برأينا عملية تاريخية مجتمعية معقدة مرهونة بتطور المجتمع على نحو كلي وشمولي.

إن خريطة الطريق التي يطرحها أستاذنا الكبير هي عملية اختزال للتربية وتبسيط لها في اتجاه ما أنجز وما لم ينجز، وبالنتيجة فإن خيارنا هو أن نعمل على إنجاز غير الناجز منها. وفي هذه الرؤية التبسيطية يعطي رضا للتربية أولوية ذاتانية على المجتمع، ولا يأخذ بعين الاعتبار الثقل الاجتماعي والتاريخي للتربية، وبرأينا أن الأمر لو كان مسألة تشخيص وإرادة وصدق نوايا لكانت التربية العربية في أكثر حالاتها سمواً وتطوراً في بعض الدول العربية حيث تتوفر الإرادة الطيبة.

وفي «مقولات التشخيص» يرى رضا أن الإنجاز المؤكّد للتربية العربية هو كمي يقع في مجالين هما: تعاظم أعداد الطلبة، والإنفاق الكبير على التعليم. ولكن رضا يتجاهل طبيعة هذا الإنتاج ويمر عليه مرور الكرام. إذاً أي إنجاز للتربية هذا إذا كانت نسبة الأمية ٧٠ في المئة بين النساء و٤٠ في المئة بين الذكور، وأي إنجاز للتربية في الإنفاق إذا كانت ميزانية الدفاع في أي دولة عربية تفوق ميزانية التعليم أضعافاً مضاعفة. وأي إنجاز للتربية هذا عندما تقوم المدارس العربية بإعداد ملايين الأميين وأنصاف الأميين والعاطلين عن العمل.

وفي «مؤشرات التقصير» يتحدث الكاتب عن جوانب سياسية واجتماعية غير تربوية وهذا يتعارض مع خريطة الطريق التي حددها منذ البداية. إن الكاتب يتحدث بتركيز واضح عن السكان والتنمية ومركز المرأة والمشاركة السياسية واستيراد الطعام كلّ هذا تحت عنوان «مؤشرات التقصير»، وهنا نجد تغييباً تربوياً لخريطة الطريق التي رسم حدودها منذ البداية، وهذه المفارقة برأينا ناجمة عن توليف مقالات سابقة وتنسيقها مع مشروع جديد، من دون تفكيك لهذه النصوص السابقة وإعادة بنائها من جديد لتنسجم مع الخارطة الجديدة للتربية.

ثمّ يحدثنا الكاتب في هذا الفصل عن ضرورة بناء «نظرية اجتماعية هادية»، وكنا نتمنى لو أنه أفاض في توضيح معالم واتجاهات هذه النظرية المقترحة، حيث أفرد لها صفحة يتيمة (ص ٣٢ ـ ٣٣) لا تقدّم لنا أي تصور واضح عن هذه النظرية وعن طبيعتها، لا أن يكتفي باقتراح نظرية كانت تحتاج إلى معالجة معمقة تضفي على العمل رونقه وأهميته.

في **الفصل الثاني**: «العرب وتوترات الأزمنة المتغيرة: مجتمعات زراعية في عصر ما بعد الصناعة»، ومضمون هذا الفصل هو ندوة من الندوات العلمية المتخصصة لمركز البحرين عقدت في ٢٢ من تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٤. يتناول الكاتب مختلف

الإشكاليات الاجتماعية والثقافية العربية في عالم متحول، كما أنه يحاول أن يحدد موقع العرب في دائرة التحولات الحضارية والتاريخية للمجتمع الإنساني. وفي دائرة هذا التحول يعالج الباحث الوضعيات الأزمية والإشكالية في العالم العربي بالمقارنة مع العالم الغربي بتحولاته النهضوية حيث لا يجد الكاتب في الأوضاع العربية غير الانكسارات والتصدعات الثقافية والتاريخية. وفي هذا السياق يتناول الكاتب معطلات الانطلاقة النهضوية العربية ويجسدها في صور ثقافية منها بعض الصور الدينية مثل قيمومة المرأة والحجاب وغير ذلك من القضايا الدينية، ويستغرق الكاتب في محاججات ذات طابع ديني لا أراه موفقاً فيها. إن الباحث يريد أن يستنطق الثقافة الإسلامية بروح علمية وعلمانية وأن يتجاوز طبيعة التفكير الديني ذاته. ومع تقديرنا الكبير للغاية التي يسعى إليها الكاتب في الكشف عن ركائز تقدّمية في الفكر الإسلامي فإن هذه المحاججة تضعف المنحى التربوي الذي انطلق منه الكاتب، ولا تخدم إلا في تأجيج حدة الجدل في قضايا الحجاب والقوامة وغير ذلك من المناقشات التي أصبحت مستهلكة تاريخياً. وقد حان الوقت لكي نتخلى تدريجياً عن هذه المحاججات الوسطوية وأن نتحول إلى غيرها. لقد خسر المعتزلة والمتصوفة والفلاسفة وإخوان الصفا معركتهم الفكرية هذه في زمن الانتصارات والعودة إليهم غير مجدية في زمن الهزيمة والانكسار.

إن ما أريد قوله هو أن علينا اليوم أن نبحث عن صيغة خطاب أكثر جدة وأكثر قدرة على المناورة، لأن خطاب التراث قد تآكل وسقط على الأغلب في هذه المرحلة. **ولا أعرف لماذا يركز الكاتب على الحجاب الشكلي للمرأة وهناك آلاف الحجب العقلية والنفسية والأخلاقية التي تضع المرأة خارج الزمن والتاريخ.** إن حجاب المرأة الذي يتمثل في رداء يوضع على الوجه أو الشعر، أو في غطاء تتلثم به، هو أهون أنواع الحجاب، ولم يكن حرياً بالكاتب أن يخصص عدة صفحات في مناقشة هذه المسألة التي تعاف النفوس مناقشتها لأن الحجاب الظاهر هو رمز يختزل آلاف الحجب الضاربة في الأعماق.

ومما لا شكّ فيه أن الكاتب يعالج أيضاً معطلات الفكر التي تتمثل في الشعوذة والتنجيم والخرافات التي تمكنت من العقل العربي وأخذت مكانها في عمق الثقافة العربية ويبحث عن السبل التربوية القادرة على محاصرتها وتصفيتها.

في **الفصل الثالث** المعنون «الطبيعة الأخلاقية للمواطنة في الدولة الحديثة» وهو في الأصل أيضاً ندوة لمركز البحرين عقدت في عام ٢٠٠٥، يتناول الباحث واحدة من أهم القضايا الثقافية والاجتماعية في العالم العربي، تتمثل في غياب قيم المواطنة ومفاهيمها وممارساتها عن الحياة الفكرية والاجتماعية العربية. طبعاً يمهد رضا لهذه القضية بالتصورات والمفاهيم المؤسسة لها مثل فقه الدولة ووظيفتها، وينتقل لمعالجة هذه المسألة في حيزها الخليجي ويبين تضاريس تشكل الدولة في الخليج العربي ويحدد مكان مفهوم المواطنة فيه، ويبين الباحث في المستوى الخليجي أن الدساتير العربية تقوم على المبادئ والأسس الموضوعية لمفهوم الدولة ولكن هناك غياباً كبيراً في دائرة الممارسة الحقيقية لمفهوم

المواطنة الذي بقي غائباً باعتباره قيمة حقيقية في دائرة الممارسة الثقافية والاجتماعية في العالم العربي.

وتأسيساً على هذا التصور التاريخي لمفهوم المواطنة يتجه رضا إلى تقديم التربية على المواطنة بوصفها إمكانية ثقافية واجتماعية قادرة عندما يراد لها فعلا أن تمارس دورها في إحياء المواطنة بصفتها مفهوماً وقيمة وممارسة في الحياة الثقافية العربية.

في **الفصل الرابع** حول «إعادة المغيبات الأربعة إلى العقول البازغة» وهو في الأصل ورقة مقدمة إلى حلقة دراسية للهيئة اللبنانية للعلوم التربوية عقدت في بيروت عام ٢٠٠٤. يتناول الباحث غياب أو تغييب مفهوم التغير والتجديد والإبداع وفقاً لمبدأ كلّ تجديد بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار. إن الثقافة العربية تغيب كلّ إمكانية أو تصور يتعلق بالتجديد والابتكار وهذا هو المغيب **الأول** الذي يستفيض الكاتب في تحديد سماته ومعالمه وخصائصه.

أما المغيب **الثاني** فهو تصور العرب لمفهوم الهوية بمعناه المنفتح والمتجدد. فالتراث بمعناه الاستلابي هو الحاضر في حياتنا الثقافية ونحن نقع في أسر الجانب المظلم من التراث الثقافي الذي يناهض في جوهره المضمون الثقافي الإسلامي لحركة إنسانية تاريخية متجددة، والرافض لمطلقات هوية عنصرية مذهبية محقونة وضيقة.

أما المغيب **الثالث** فهو المعرفة العلمية الرصينة والمعارف الموضوعية التي تنتظم في سياق تاريخي منظم. إن الثقافة العربية تعاني من تصدعات وانهيارات تتمثل في حضور فكر تغيب فيه ملامح العقل العلمي وتتزاحم فيه الخرافات والأوهام والأساطير في تواتر عقلية مهزومة في مختلف مستويات الحياة العلمية والعقلية. ومما لا شكّ فيه أن هذه الثقافة العلمية والعقلية تجد أصولها ومستقرها في الفكر الإسلامي في القرآن والسنة والعقيدة والتشريع والممارسة ولكن في اللحظات المشرقة من التقدّم الحضاري استطاعت هذه الأصول العقلانية أن تتوهج وأن تمارس دورها في كلّ نقلة حضارية ثقافية عربية في اتجاه الرقي والتقدّم الإنساني.

أما المغيب **الرابع** فيتمثل في زحف سرطاني للمقدس على مختلف جوانب الحياة الثقافية والاجتماعية. فنحن في عصر الأنبياء الجدد الذين رفعوا من ذواتهم وكل ما يحيط بهم إلى مراتب التقديس الكلي والشامل. إن المقدس له حدوده وبيانه الذي يتمثل في النبي (ﷺ) وفي القرآن الكريم وفي السنة النبوية، وعندما يتجاوز المقدس هذه الحدود والتخوم ليشمل السلطان والحكام والأولياء الصالحين وتراث الآباء والأجداد الأولين والآخرين فإنه يتحول إلى دمار شامل تتعطل فيه كلّ إمكانيات النهوض الحضاري والانطلاق الإنساني نحو آفاق عقلية ونقدية.

وفي هذا الفصل يطرح الكاتب منهجية تربوية لمواجهة التحديات الأربعة في اتجاه استحضار الطابع الإنساني للوجود العربي الذي يتمثل في العقل والحرية والتجديد والابتكار وترسيم المقدس في حدوده القداسية الحقّة.

في **الفصل الخامس** «قوى الدفع والقصور الذاتي في عملية هيكلة التخصصات في الجامعات ومؤسسات

التعليم العالي العربي: جامعات الخليج نموذجاً» يتناول الكاتب إشكالية التعليم الجامعي في بلدان الخليج العربي وملامح ضعفه وقصوره ومدى تحوله إلى مؤسسات تسويقية ترويضية للعقل والإنسان. ويناقش الباحث في هذا الفصل مختلف الاتجاهات والقضايا التي تتعلق بالتعليم الجامعي في الخليج ويبين مدى القصور العلمي والتربوي الذي تواجهه مؤسسات التعليم العالي في الاستجابة لمتطلبات العصر وفي مواكبة اتجاهات التنمية الاجتماعية في عالم الميديا والعولمة.

ويقدم الباحث مجموعة من التصورات والسيناريوهات التربوية والثقافية التي يمكنها أن تشكل منطلقاً لتطوير التعليم العالي في اتجاه التنمية الاجتماعية بعيداً عن مواطن الضعف والقصور والممارسات السلبية التي تهدد كينونة هذا التعليم ووجوده.

بصورة إجمالية يمثل هذا الكتاب بفصوله الخمسة محاولة علمية جادة ورصينة في اتجاه المعالجة العلمية لأوضاع المجتمع العربي في سياق رؤية تربوية ذات طابع فلسفي متناغم مع متطلبات العصر ومقدراته. وغني عن البيان أن هذا الكتاب يمثل خلاصة تجربة حية لخبرة تربوية حية تشكلت على مدى نصف قرن من الزمن عرفت بخصوبة العطاء لكاتب عربي ومفكر تربوي وسم التربية العربية بطابع رؤية نقدية ناقدة وروح حرة في اتجاه تطوير العقل العربي وتنويره.

مما لا شكّ فيه أن العمل يشكل خلاصة لتجربة فكرية تربوية قومية رائدة لواحد من كبار المفكرين التربويين في العالم العربي. ومما لا شكّ فيه أن العمل ـ بغض النظر عن مكانة الكاتب وأهميته ـ يشكل معالم رؤية نقدية للتربية العربية يجب أن توضع في متناول القراء والمفكرين من طلاب ومدرسين ومفكرين وباحثين.

إن موضوع الكتاب هام جداً ولا سيّما من حيث العمل على بثّ ثقافة تربوية قومية تنويرية ضرورية في مواجهة التحديات التاريخية التي تواجهها الأمة العربية في المرحلة الراهنة، والعمل يشكل بالضرورة إضافة علمية رائدة في الثقافة التربوية العربية ولاسيّما في مجال الفلسفة التربوية والتنوير التربوي، وهذه الإضافة تأتي لتضيء شمعة جديدة في دائرة الظلام الفكري السائد في العالم العربي. وبعبارة أخرى يتكامل هذا العمل مع العطاءات الفكرية والمعرفية للمتنورين العرب والمثقفين العقلانيين في مختلف الاتجاهات الفكرية النقدية السائدة.

وهنا تجب كلمة شكر إلى مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت الذي استطاع عبر هذا الكتاب أن يلبي الحاجة العلمية والمعرفية للكتّاب والطلاب العرب ويسد النقص الكبير في الثقافة الفلسفية التربوية العربية، كما إنَّ هذا الكتاب يغطي بعض النقص في إصدارات المركز التربوية.

وأخيراً نوجه كلمة شكر وتقدير وعرفان بالجميل للدكتور محمّد جواد رضا الذي كان ملهماً للتربية العربية المتنورة بأعمال فكرية ستبقى أبد الدهر شاهداً على عطائه الفكري والإنساني، ورسالته التربوية التنويرية في العالم العربي على مدى نصف قرن من الزمن □